The place is in Fadwa Toukan's poetry

Dr. Mahmoud Falih Salman Al-Qudah*
Dr. Muntaha Taha Al-Harahsheh**

(Received 15 / 7 / 2020. Accepted 26 / 8 / 2020)

□ ABSTRACT □

Place is one of the most important topics for the study of literary works. It is also the essence and basis of the creative process. Thus, the aim of this study is to study place and explain its importance and manifestations in the poetry of FadwaTouqan- one of the most prominent Palestinian poets who demonstrated place in their poems with the same space and identity of their own. As place is strongly present in the poetry of FadwaTouqan, it is necessary to study her poetic works and link it to the references of the place and its connotations and the dimensions it carries. Place in FadwaTouqan's poetry is not a mere geographical dimension but also a representative for a group of psychological signals and intellectual and esthetic visions. The poet, via these signals and visions, expresses her human, political, and social reality by a set of dimensions that are represented in a group of prominent dualities. The first duality is about place, love and hope. The second one is about place, sadness, and alienation. Finally, there is place and national concern.

Keywords: FadwaTouqan – Place - Poet – Love – Sadness

*Associate Professor - Al al-Bayt University - Jordan
**Associate Professor - Al al-Bayt University - Jordan

المكان في شعر فدوى طوقان

د. محمود فليح سلمان القضاه *

د. منتهى طه الحراحشه**

(تاريخ الإيداع 15 / 7 / 2020. قبل للنشر في 26 / 8 / 2020)

□ ملخّص □

يعد المكان من أهم الموضوعات لدراسة العمل الأدبي وهو جوهر العملية الإبداعية وأساسها ، ومن هنا كان هدف هذه الدراسة هو دراسة المكان وبيان أهميته وتجلياته في شعر فدوى طوقان التي تعد من أبرز الشعراء الفلسطينيين الذين تجلى المكان في أشعارهم بما مثله من فضاء وهوية خاصة بهم. وحين كان المكان حاضرا بقوة في شعر فدوى طوقان فقد تطلب ذلك العودة إلى أعمالها الشعرية وربطها بمرجعيات المكان ودلالاته ، فلم يكن المكان في شعر فدوى طوقان مجرد بعد جغرافي فقط ، بل كان حاضنا لمجموعة من الإيحاءات النفسية والرؤى الفكرية والجمالية ،التي عبرت من خلالها الشاعرة عن واقعها الإنساني والاجتماعي والسياسي ، من خلال مجموعة من المحاور التي تمثلت في مجموعة من الثنائيات كان أبرزها : المكان والحب والأمل ، المكان والحزن والاغتراب ، المكان والهم الوطني .

الكلمات المفتاحية : فدوى طوقان – المكان – الشاعرة –الحب – الحزن

* **أستاذ مشارك – جامعة آل البيت– الأردن**

** **أستاذ مشارك – جامعة آل البيت – الأردن**

مقدمة

مفهوم المكان وأهميته :

جاء في تعريف المكان في المعجم الوسيط بأنه : " المنزلة والموضع ، والجمع من كلمة مكان أمكنة ، وفي التنزيل العزيز : "﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ أي موضعهم" [1] . وقد ظهر لدى الباحثين والدارسين مفاهيم عدة للمكان بالنظر إلى ممارساتهم النقدية لهذا المفهوم وتطبيقاتهم التي اختلفت باختلاف رؤاهم ومعارفهم ، فوصف المكان بأنه : " الوجه الأول للكون وهو محور الحياة الذي تحتاجه الكائنات وتتموضع فيه الأشياء ، وقد يلعب المكان دورا مهما في تحديد نسق الحياة للكائنات الحية التي تعيش فيه ، ومنح أشكال محددة للأشياء المتموضعة فيه " [2] ، ومن حيث قابلية إدراك المكان من قبل الإنسان وخضوعه لحواس ذلك الإنسان جاء المكان على أنه : " الموضع الثابت المحسوس القابل للإدراك ... وهو متنوع شكلا وحجما ومساحة ، فالقصر والمنزل والطريق والجبل أمكنة قارة محسوسة ، ولكنها مختلفة في أشكالها وأحجامها ومساحاتها " [3] ، ومن الدارسين من يرى أن المكان هو : " الفسحة ، الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم من خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الآخر " [4] .

وفيما سبق في النظرة إلى المكان لدى الدارسين نجد أن مفهوم المكان يدور في فلك الحيز والحجم والخلاء ، لنجد من يخالف تلك النظرة في عالم الإبداع الأدبي فهناك من يرى أن المكان لم يعد يحمل ذلك المعنى (الحيز والحجم والخلاء)[5] بل رُبط المكان بالحالة النفسية والوجدانية للإنسان ، وقد ركز باشلار على هذه العلاقة حين يقول : " حين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه ، وبينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى ، ننخرط في ذلك الدفء الأصلي في تلك المادة لفردوسنا المادي ، هذا هو المناخ الذي يعيش فيه الإنسان المحمي في داخله " [6] ، وهذه الفكرة نلمسها أيضا في تلك المقدمة التي قدمها غالب هلسا لكتاب باشلار (جماليات المكان) . لذلك يعد المكان عنصرا أساسيا في حياة الإنسان وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الحياة ، فجميع الناس يشتركون في المكان ويحسون به " فالمكان أكثر التصاقا بحياة الإنسان ، وإن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي ومباشر وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمره " [7] ، وهو (المكان) مغروس في الإنسان متمكن في أعماقه[8] . وفي عالم النقد الحديث ظهرت تصنيفات عدة للمكان من أبرزها المكان الأليف والمعادي ، والمغلق والمفتوح ، والواقعي والخيالي[9]. وحتما فإن للمكان أهمية في العمل الأدبي وتأتي هذه الأهمية من كون المكان عنصرا أساسيا من عناصر العمل الأدبي ولا يتحقق العمل الأدبي بدونه ، كما أنه يتصل بجوهر العمل الأدبي لأن المكان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر العمل الأدبي ، فالمكان " يعد مدخلا مهما لدراسة النصوص الأدبية والبحث في مرجعياته ودلالاته وجماليات اللغة الشعرية . فالشاعر يرتبط بالمكان ارتباطا عضويا

(1) مصطفى ،إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، استانبول – تركيا ، ص 806.
(2) مرشد ، أحمد ، جدل الزمان والمكان في روايات عبد الرحمن منيف ، مجلة بحوث جامعة حلب ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع22 ، 1992 ، ص56.
(3) عبد مسلم ،طاهر ، عبقرية الصورة والمكان ، التعبير ، التأويل ، النقد ، دار الشروق ، عمان ، 2002 ، ص16.
(4) حسين حسين ،خالد ، شعرية المكان في الرواية الجديدة ، الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، ص60.
(5) ديفيز ،ب.س، المفهوم الحديث للمكان والزمان ، ترجمة : د. السيد عطا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1998، ص11.
[6] باشلار ،غاستون جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2، 1984، ص38.
[7] إبراهيم ،نبيلة خصوصية التشكيل الجمالي في أدب طه حسين ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مج 9 ، ع 1-2 ، ص49.
[8] رحومة ،محمد محمود ، دراسات في الشعر والمسرح اليمني ، دار الكلمة ، صنعاء ، 2003، ص48.
[9] لحمداني ،حميد بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1993 ، ص79 .

ونفسيا، ويتواشج مع أبعاده المادية وارتباطاته العاطفية ، حتى ليصبح هذا المكان هو الوعاء الذي يستوعب ذكرياته وأحلامه وأشواقه ، ويجسد لواعجه النفسية وعلاقاته الاجتماعية والسياسية المختلفة " [1] .

وتبقى أهمية المكان راسخة في كل النشاطات الإبداعية وهذا ما أكده غالب هلسا في تقديمه لكتاب " جماليات المكان " لـ جاستونباشلار Gaston Bachelard حين قال " إن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فإنه يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته والمكان بالنسبة لي كروائي يعبر عن خصوصية قومية ، ويعكس رؤية خاصة للعالم " [2] ، وبالتالي فإن الأنواع الأدبية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالحيز المكاني كما هو الحال في الرواية والقصة والمسرح ، وقد ظهرت كتب نقدية حديثة تناولت هذه الفنون وكشفت معمارية المكان في خباياها وكان من أبرز تلك الكتب كتاب " شعرية المكان في الأدب العربي الحديث "[3] وهو الكتاب الذي يعالج شعرية المكان في عدد من الأعمال الأدبية لمجموعة من الكتاب العرب ، وكتاب " جماليات المكان " لجاستونباشلار، وكتاب " إشكالية المكان في النص الأدبي " لياسين النصير، وكتاب " المكان في الرواية العربية " لغالب هلسا .

وفي الشعر يمكن القول إن المكان احتل حيزا واضحا في شعرنا القديم والحديث " فالشعر العربي شعر مكاني في ارتباطه بالبيئة التي انتجته والإنسان الذي أبدعه لذا كان لزاما على الدرس الأدبي أن يلتفت إلى المكان فيه ... والتنقيب في عمق العلاقات التي ينشئها المكان بينه وبين مختلف المعاني، والعادات القولية، والفعلية، والأخلاق، والسلوك"[4] ، والشاعر العربي الحديث أكثر إحساسا بالمكان بسبب ما يحس به من مظاهر التهديد التي تحيط بالمدن بالمدن العربية، المتساقطة تباعا في يد الاستعمار والغزو، ثم لكون الشاعر ينسج مع المكان علاقة ألفة وحميمية تكشف عنها النسبة إلى الذات الفردية لدى أغلب الشعراء (مدينتي قريتي وطني) [5] ، كما أن الشاعر يرتبط بالمكان ماديا ونفسيا حتى ليصبح المكان هو الوعاء الذي يستوعب ذكرياته وآماله وطموحاته ، ويعبر عن قضاياه الاجتماعية والسياسية المختلفة ، والشاعر" لا يستطيع أن يبرح المكان ، والمكان يحتويه في حياته ومماته فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه " [6]. وحين تجلى المكان في شعر فدوى طوقان واضحا فإنه كان لزاما تقسيم الدراسة إلى مقدمة وثلاثة محاور على النحو التالي : 1- المكان والحب والأمل 2- المكان والحزن والاغتراب 3- المكان والهم الوطني – وخاتمة .

أسئلة الدراسة :

يمكن القول إن الشاعرة فدوى طوقان من الشعراء الذين تجلى المكان في أشعارهم وكان ظاهرة بارزة في تلك الأشعار التي عبروا من خلالها عن واقعهم الإنساني والسياسي والاجتماعي ، ولم يكن الاهتمام بموضوع المكان في شعر فدوى طوقان ظاهرا في الدراسات الأدبية التي تناولت شعرها بالدراسة والتحليل ، بل بقي جزءا ظاهرا للعيان يحتاج إلى من يطرق بابه ويكشف النقاب عن خباياه ، ولتجاوز هذه الثغرة ظهرت هذه الدراسة التي هدفت إلى رصد المكان وتجلياته في شعر فدوى طوقان وبيان أهميته وجمالياته الفنية ، والإجابة عن مجموعة من أسئلة تشكل إجاباتها مرجعية معرفية تكشف عن إبداعات الشاعرة وتشكل إضافية نوعية للمكتبة الأدبية ، ولهذا فإن سؤال الدراسة الأساسي هو

---

[1] البعول ،فاطمة عيسى المكان في شعر حيدر محمود ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 2006 ، ص1.

[2] باشلار ،غاستون جماليات المكان ، مصدر سابق ، ص5.

[3] شعرية المكان في الأدب العربي الحديث ، تحرير الحلاق ، يطرسوآخرون– ترجمة نهى أبو سديرة وعماد عبداللطيف ، المركز القومي للترجمة القاهرة ، 2014 .

[4] مونسي ،حبيب فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001 ، ص10 .

[5] انظر : صورة المكان في شعر محمد لقاح : http://www.maghress.com/essanad/2075

[6] مونسي ،حبيب فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001، ص72.

الكشف عن أهم القضايا التي قدمت من خلالها الشاعرة المكان في قصائدها ، ويتفرع هذا السؤال إلى أسئلة فرعية من أبرزها : ما الأسلوب الذي اعتمدته الشاعرة في صياغتها للمكان ، وما هو المكان الذي شغل بال الشاعرة وكان حاضرا بقوة في قصائدها ، وهل استطاعت الشاعرة بناء تصور واضح للهوية الفلسطينية في علاقتها مع المكان .

منهج البحث :

اعتمدت هذه الدراسة المنهج الفني الذي يواجه النص الشعري بالقواعد والأصول الفنية المباشرة ، إذ يعد هذا المنهج ذاتيا من خلال التأثر الذاتي لمحلل النص أثناء تحليله للنصوص المدروسة ، كما يعد منهجا موضوعيا بمراعاته العناصر الموضوعية والأصول الفنية في النصوص ، فهو منهج ذاتي موضوعي في آن واحد . لذلك فقد سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن القيم الشعورية في النص والتي ميزت الشاعرة فدوى طوقان عن غيرها من الشعراء ، والبحث في قدرة الشاعرة على التعبير عن المكان في قصائدها ، وكيف شكل المكان لحظة إبداع لديها من خلال قدرتها على إعادة تشكيل المكان بما ينسجم مع رؤاها كشاعرة حالمة تعيش اللحظة الجميلة ، خاصة فيما يتعلق بمحور الحب والأمل لديها ثم قدرتها على النظر إلى الكون والحياة نظرة شاملة ، ليسهم ذلك في الكشف عن الطابع الخاص الذي ميز الشاعرة فدوى طوقان عن غيرها من الشعراء .

الدراسات السابقة :

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها المحاولة الأولى كدراسة علمية متخصصة لدراسة المكان في أعمال فدوى طوقان الشعرية كاملة ، فأعمال الشاعرة جاءت في سبعة دواوين هي : " وحدي مع الأيام ، وجدتها ، أمام الباب المغلق ، الليل والفرسان ، على قمة الدنيا وحيدا ، تموز والشيء الآخر ، اللحن الأخير " . في حين تعددت الدراسات التي تناولت المكان في الشعر العربي القديم والحديث، وكان من أبرز هذه الدراسات ، دراسة : فلسفة المكان في الشعر العربي لحبيب مونسي[1] ، وفي هذه الدراسة كان الاهتمام بالمكان (الطلل) واضحا والاهتمام بتحولاته على مر العصور، كما تناولت الدراسة مجموعة من المواضيع أهمها موضوع : الجبل ، والفضاء المادي ، والفضاء المعنوي ، والمكان الزماني ، والزمان المكاني . ومن الدراسات التي تناولت المكان في الشعر العربي دراسة : المكان في شعر أمل دنقل لمنال سعيد[2] ، وأبرز ما يميز هذه الدراسة أنها حاولت تتبع أهم المعالم المكانية التي استعان بها أمل دنقل لمساعدة إنسان عصره للوصول إلى " جوهر وجوده "[3] . وقد حاولت الدراسة أيضا تتبع أهم تحولات المكان في شعر جماعة الإحياء .

أما الدراسات التي تناولت المكان في الشعر الفلسطيني خصوصا ، فإنه يمكن الإشارة إلى مجموعة من الدراسات من أهمها دراسة : المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش لليانة عبدالرحيم كمال[4] ، ويمكن القول إنه يمكن تقسيم تقسيم هذه الدراسة إلى إطارين رئيسيين : الإطار النظري والإطار التطبيقي ، ففي الإطار النظري تم معالجة العلاقة بين المكان والهوية ، وفي الإطار التقليدي تم دراسة تحولات الهوية بالتوازي مع المكان عند الشاعر محمود درويش داخل الوطن ، وتحولات الهوية داخل الوطن وخارجه (المنفى) وبعد عودة الشاعر. ومن الدراسات التي تناولت المكان في الشعر الفلسطيني أيضا دراسة : صورة المكان في شعر عز الدين المناصرة لزايد محمد ارحيمة[5] ، وقد قسمت

[1]مونسي ،حبيب فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر ، مصدر سابق .
[2]سعيد ، منال المكان في شعر أمل دنقل ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 1998.
[3]السمرة ،محمود النقد الأدبي والإبداع في الشعر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص82.
[4]عبد الرحيم ، ليانة ،المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بيرزيت ، فلسطين ، 2012.
[5]ارحيمة ، زايد محمد صورة المكان في شعر عزالدين المناصرة ، دار الراية للنشر والتوزيع ، عمان ، 2012.

الدراسة إلى ثلاثة فصول– تناول فيها الفصل الأول المكان (فلسطين) والمكان (العربي والأجنبي) ، وتناول الفصل الثاني مكانين هامين في حياة الشاعر وهما (الخليل والبحر الميت) ، أما الفصل الثالث فقد كان دراسة فنية تمت فيها دراسة الصور الشعرية بأقسامها المختلفة . وكانت هناك دراسة خاصة بالمكان عند الشاعرة فدوى طوقان ، وهي دراسة : المكان في شعر فدوى طوقان – ديوان " الليل والفرسان " أنموذجا لنقاز ليلى ونقاز نبيلة[1] ، وبالنظر إلى عنوان هذه الدراسة نجد أنها قد اقتصرت على دراسة المكان في ديوان واحد فقط من دواوين الشاعرة ، خاصة إذا ما علمنا أن الشاعرة فدوى طوقان قد قدمت سبعة دواوين شعرية .

1– المكان والحب والأمل :

كان المكان ولا يزال يشكل مكانة خاصة لدى الشعراء قديما وحديثا ، ففيه أفراحهم وفيه أحزانهم وفيه ذكراهم ، وقد اتسعت مفاهيمه كما اتسعت أبعاده ووظائفه الفنية والاجتماعية والتاريخية ، ولم يعد المكان يرتبط بالشاعر ارتباطا عضويا فقط بل أصبح يرتبط ارتباطا وثيقا بحالة الشاعر النفسية ، فالشاعر يبدع حين يستلهم من المكان تلك اللحظات الجميلة التي كان يرى أحبته فيها ، فيصبح المكان هو " هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات "[2] . وكما للمكان قيمته المادية الواقعية فإن قيمته المعنوية تبدو أكثر إشراقا في العمل الشعري بفعل الاندماج بين المكان وتجارب المبدعين الذاتية ، فالمكان ليس " جزءا من العالم المادي فحسب ، بل هو جزء من عوالم خيالية مختلفة أيضا ، فتصورات المكان بصورة عامة ، وأماكن معينة بقدر أكبر من التحديد ، ليست تصورات محايدة موضوعية ، وإنما هي متشكلة بفعل تجارب ذاتية ومواقف سيكلوجية ، بل يمكن ربط الأماكن بتجارب ومواقف محددة قادرة على إكسابها فيما تبدو جزءا من طبيعتها الأصلية الأولى "[3] . وفي شعر فدوى طوقان كان المكان حاضرا بقوة باعتباره مرتكزا عاطفيا تجلت أبعاده لدى الشاعرة في كثير من قصائدها ، كما تشكلت من المكان تلك الصور التي كشفت عن ذات الشاعرة وعبرت عن علاقتها بالعالم وتجربتها في الحياة وبالذات علاقتها مع الرجل ، وقد تجلى المكان ظاهرا في أبعاد وعناوين أخرى في ديوانها الشعري ليسجل المكان سطوته في شعرها كما هو الحال في نثرها ، فيرتبط عنصر المكان بالعنصر العاطفي لدى الشاعرة التي أغنت الشعر العربي بهذا الجانب الذي شكل سمة بارزة في شخصيتها وفي بوحها الصادق بالحب واعترافها الجميل به حين طرق قلبها وتغلغل في أعماقها ، وهذا ما أكدته سلمى الجيوسي بقولها إن الشاعرة فدوى طوقان "خدمت الشعر بتحريرها للعنصر العشقي، وبتمهيدها الطريق للصدق العاطفي ،متفوقة في ذلك على معظم أبناء جيلها الشعراء الرجال ، وخلافاً لمعظم الكاتبات اللاتي بدأن الكتابة بعد عام 1948 م – أيفيجونفسيسادتهروحالرفضللمفاهيموالقيمالبالية"[4] ، كما عدها صبحي حديدي من رائدات الحداثة العاطفية الشعرية إذ يرى أنها أعادت " تصحيحالموقفالاجتماعي المتخلفمنقضاياالحبّوالفنّوالحريةعندالمرأة ،ولأنهاأيضاًتعيدتصحيحالتنظيراتالحداثيةالتيتمجّدفتح ملفاتالنفسالبشريةوالمزيدمنالانفتاحعلىذاتالفنان،ولكنهافيالآنذاتهتزدريالنزوعالعاطفيفيالنصالنسائي بصفة خاصة"[5].

---

[1]ليلى ، نقاز ونقاز نبيلة ، المكان في شعر فدوى طوقان ،ديوان " الليل والفرسان " أنموذجا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة محمد بوضياف ، المسيلة ، الجزائر ، 2018.

[2]عقاق ،قادةدلالةالمدينةفيالخطابالشعريالمعاصر،اتحادالكتابالعرب،دمشق، 2001،ص279.

[3]البعول ،فاطمة المكان في شعر حيدر محمود ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 2006 ، ص10.

[4]الجيوسي ،سلمى موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1997 ،ص48 .

[5]حديدي ،صبحي " الحداثة العاطفية " فدوى طوقان والريادة النسوية في الشعر العربي الحديث . الحلقة النقدية في مهرجان جرش 19 ، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2001 ، ص20 .

ومن يتابع الجانب العاطفي وقضية الحب في شعر فدوى طوقان يجد أن الشاعرة قد أشارت إلى هذا الجانب صراحة في نثرها[1] كما هو الحال في شعرها ، فنجدها تقول في كتابها (رحلة جبلية صعبة) " كان أول حب واقعي وحقيقي ، وقف في نهر حياتي كحاجز هائل اعترض مسيره ، وأوقف جريانه ... كنت أخرج في الليل إلى السماء أرفع وجهي مستنجدة بها لتخلصني من تلك الدوامة الرهيبة ، التقينا ولدهشتي وجدتني أسلم عليه بنفس الحيادية الشعورية التي أصافح بها أي شخص لم تربطني به أي عاطفة " [2] ، وفي شعرها يجد القارئ أن معاني الحب برزت بشكل واضح في دواوينها الأولى (وحدي مع الأيام ، وجدتها ، أعطنا حبا) ، كما لم تخل دواوينها الأخرى من هذه المعاني ، فالحب ولغته وما رافقها من أمل كانت أكثر شيوعا في قاموسها الشعري، وقد كانت عناوين قصائدها شاهدة على احتفالها بتلك اللغة ، وهذه القصائد كانت تدور في فلك الحب بشكل أقرب ما يكون إلى البوح بما يعتمل في نفس الشاعرة من أحاسيس وعواطف جياشة عاشتها الشاعرة ، وقد امتزجت لغة الحب لديها بالمكان الذي اختارته الشاعرة وخبرته ، فعلى الأديب " ألا يختار أمكنته وأشياءه إلا بعد الخبرة بها أو التجربة على أرضيتها "[3] ، وقد جاءت الشاعرة فدوى بالمكان : (الكون) – (الدار) – (الدرب) – (الدنيا) – (القلب) – (الروض) في قصائدها لأنها خبرته وكانت واعية به ، وهو ما يكشف عن البعد النفسي للشاعرة في اختيارها للمكان داخل النص وأهمية هذا المكان والتركيز عليه "فالمكان قد يكتسب سمات الشخصية الحية وقد يدفع الكاتب إلى إضفاء صفات خيالية على خصائص المكان الفعلية"[4] .

ولما كان المكان جزءا رئيسا في عنوان الدراسة وفي هذا المحور (المكان والحب والأمل) ، فإنه لابد من الالتفات إلى المكان والبحث في العلاقات التي تنشأ بينه وبين مختلف معاني الحب والأمل في شعر فدوى طوقان ، وحين كان الشعر العربي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمكان وبالبيئة التي انتجته كان لزاما البحث في المكان بالمقام الأول وتجلياته التي يمكن أن يولدها في إبداعات الشاعرة خاصة فيما يتعلق بالجانب العاطفي والرومانسي لديها ، ومما يشجع على ذلك حضور المكان بشكل لافت في ديوان الشاعرة بدلالته المادية والمعنوية ، وهنا يظهر مدى إدراك الشاعرة إلى حاجة الفن للمكان كما يرى ياسين النصير بقوله إن الفن " إذا ما ابتعد عن احتواء المكان فقد واقعيته ، وإنّ الفن إذا ما تنكر للمكان عاش في تاريخ اللاتاريخ " [5]، ومن هنا جاء اهتمام الشاعرة فدوى طوقان بالمكان في قصائدها . وفي الجانب العاطفي يمكن القول إن قضية الحب قد تجسدت لدى الشاعرة من خلال علاقتها بالمكان الذي شكل ركيزة أساسية في شعرها ، فحين كانت تبحث عن عالمها المأمول (الحب) جاء المكان ليبدو أليفا ومهمته تبادل الأدوار في نفس الشاعرة ، فالمكان " يتبادل الأدوار معنا ، فهو مرة بداخلنا ومرة في الخارج ، وربما يحتوينا ، ومن هذا التبادل تنشأ علاقاتنا به من حيث ألفته وعدوانيته ، ويكون هذا المكان بصور البيت أحيانا وبصور الطبيعة أحيانا أخرى ، مرة أليفا ومرة عنيفا " [6]وبدءا من مطالع قصائدها برز المكان واضحا كعامل أساسي ومؤثر في إبداعات الشاعرة ، فجاء المكان للكشف عن رؤى الشاعرة لعالم الحب والأمل في الحياة ، فها هو المكان (القلب) المكان

[1] ينظر : طوقان ،فدوى رحلة جبلية رحلة صعبة ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ط2 ، 1985 ص33 ، 34 ، 35 ، 36 ،37 ....

[2]طوقان ،فدوى رحلة جبلية رحلة صعبة ، ص224.

[3]النصير ،ياسين إشكالية المكان في النص الأدبي ، ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 ، ص22.

[4]إبراهيم ،عبدالله البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1988 ، ص12.

[5]النصير ،ياسين إشكالية المكان في النص الأدبي ، مصدر سابق ، ص8 .

[6]أبو زريق ، محمد المكان في الفن ، وزارة الثقافة ، عمان ، 2003 ، ص98 .

الداخلي الذي يعيش في داخل الإنسان والأقرب إليه يأتي شاهدا على بحث الشاعرة عن كل ما هو سام في الحب – السمو الروحي وذلك في قصيدتها (سمو) [1]:

سموت بقلبي وروحي فراحا يفيضان بالشعر شعر الهوى ونضّرت عيشي فأمسى غضيرا ترف عليه زهور المنى

فهي تنظر إلى الآخر روحا ينير طريقها ويبعث الأمل في حياتها ، وهذا السمو يرتبط بمكان خارج ذاتها هو مكان عال ترنو إليه نفس الشاعرة ويلبي حاجتها هذا المكان هو (الرحاب العلى) :أحبك للفن يسمو هواك بنفسي في الرحاب العلى فيدني إليها معاني السماء ويناى بها عن معاني الثرى

وهذه الصورة التي تجلت لدى الشاعرة يتبعها صور أخرى تكشف عن نظرة الشاعرة إلى الحب ، إذ لم يكن المكان غائبا عن هذه الصور ، فالمكان (الجنة ، الفردوس ، الدنيا) وما يحمله من دلالات عظيمة توظفه الشاعرة لتكشف عن قيمة الحب والحبيب في عالمها ، فالحبيب جنتها الذي وهو الذي يعيّشها في الفردوس وهو الذي يمنحها حبا ليس أي حب بل هو حب بحجم الدنيا ، وقد قدمت الشاعرة هذه الصورة وكأنها تستجدي الحبيب في بحثها عن الحب المنشود في وقت كانت فيه القيود الاجتماعية أكثر صرامة في خمسينيات القرن العشرين ، وهذا ما أشارت إليه سابقا سلمى الجيوسي حين قالت إنّ الشاعرة فدوى طوقان قد خدمتالشعربتحريرهاللعنصرالعشقي، وبتمهيدهاالطريقللصدقالعاطفي.

عبقت في خاطري يا جنتي يا حبيبي أنت تحيا لتنادي

يا حبيبي أنا أحيا لألبي أنت دنيا دنيا ملء قلبي[2]

وهي لا تريد إلا أن تكون قريبة من هذا الحبيب وفي أي مكان – في المكان الذي يشع منه الأمل والفرح الذي يحتاجه قلبها في أماكن الطبيعة فهي تنفتح على الطبيعة في شعرها انفتاحا كبيرا ، وهذا الانفتاح يمكن القول إنه يبعث في النفس الشعور بالسعادة وينقلها إلى الإيجابية والأمل ، تقول الشاعرة [3]:

هناك فوق الربوة العالية هناك في الأصائل الساجية

فتاة أحلام خيالية تسبح في أجوائها النائية

ومن قصيدة (حتى أكون معه) تقول [4]:

يفتح قلب الربيع بمنحدرات السفوح وفوق نهود التلال

على ضحكات المروج يعانق فيها العبير ويحضن الرياض

لقد كانت (المروج ، السفوح ، التلال ، الرياض) كلها أماكن من الطبيعة يشع منها عبق الخيال والانطلاق ، يشع منها عبق الرومانسية التي تعيشها الشاعرة وتبحث فيها عن عالم أحلامها ، فهي من اطلع على أدب وأدباء المهجر الذي كان ينشر في مجلة الثقافة المصرية شعرا ونثرا ، وهي من تأثر بشعراء مدرسة (أبولو) من أمثال إبراهيم ناجي والشابي وعلي محمود طه والتيجاني[5]. لقد ساهم المكان في نقل مشاعر الشاعرة وأصبح مليئا بالنشاط الإنساني والحيوية حين أضفت عليه الشاعرة الفعل البشري ، وكأنها تقوم بتشخيص ذلك المكان وفي هذه الحال تصبح الشاعرة "

[1]طوقان ،فدوى الأعمال الشعرية الكاملة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1993، ص65.
[2]طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص 162.
[3]طوقان ،فدوى الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص16.
[4]طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص 163.
[5]الدردنجي ،هيام رمزي ، فدوى طوقان شاعرة ، أم بركان ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمان ، 1994 ، ص79 .

فنانا تشكيليا يرسم لوحات فنية عن طريق القول ، وبمعنى آخر نراه يجعل المكان عنصرا رئيسيا في عمله الفني " [1] .
وهاهي الشاعرة تخاطب المروج بأن تفتح لها قلبها الرحيم ، وهي تجعل من هذه المروج رفيقا لها :
قد جئت ها أنا فافتحي القلب الرحيب وعانقينيقد جئت أسند ههنا رأسي إلى الصدر الحنون [2]
وهي لا تفتأ تشكو وحدتها التي تعيشها في قصائدها ، وحين تلتفت إلى عناصر الطبيعة فإنها تجعلها شاهدة على معاناتها ، فهي بحاجة إلى ذلك الصاحب الذي يذكرها ويؤنس وحدتها :

وحيدة لا شيعتك الربى ولا بكى الروض بقلب صديع
قد أنطوي مثلك منسية لا صاحب يذكرني أو رفيق [3]

والشاعرة كعادتها حين تخاطب المكان فإنها تحمله مشاعرها الإنسانية كأنيس ورفيق ، فالمكان لا يبرز في الشعر الحديث " شيئا معزولا مفردا أو تكوينا بلاستيكيا مجردا أو بناء أجوف يحتوي على فراغات وجدران وغرف وسقوف ، وإنما يبرز باعتباره ممارسة ونشاطا إنسانيين مرتبطين بالفعل البشري ويحملان من بين ما يحملانه مواقف وعواطف وخلجات ومشاعر وانفعالات الكائن الإنساني بل وكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة ، المعلنة والمختفية ، الواقعية والمتخيلة ، المحتملة والممكنة للإنسان عبر تاريخه العام والخاص " [4] ، ويبقى الحب لدى الشاعرة وبحثها عن الآخر ملامح تتجسد في شخصية الشاعرة في حياتها المبكرة ، ففي خضم مشاعرها المرهفة وشعورها بالقهر والحرمان آثرت أن تهرب من ذاتها إلى الآخر باحثة عن الحب الذي تشعر بفقدانه وحاجتها إليه ، لذلك كان هروب الشاعرة إلى الخيال إلى الحرية إلى ذلك الفضاء العظيم ذلك المكان الذي تهوى إليه نفسها وتتوق إليه إلى الأعالي وما فيه من انطلاق يبعدها عن الثبات والجمود .

قفي أين تمضين ؟ فيم اندفاعك ؟ من ذا ترينهنالك عبر الفضاء العظيم ؟
ألست من الأرض ؟ فيم انخطافك ؟ فيم انجذابك نحو الأعالي ؟[5]

ويبقى المكان الفسيح هو ذلك المكان الذي ترنو إليه نفس الشاعرة ، المكان الذي تجد الشاعرة فيه نفسها ، في ذلك المكان المتخيل الذي يختلف عن المكان الطبيعي (الواقعي) ، ففيه الخيال ، ذلك المكان الفني الذي يعتمد صورا عقلية قد لا تكون موجودة على أرض الواقع ، إذ إن " الانتقال من المكان المعاش إلى المكان الفني هو تحول من عالم الحياة اليومية بحسيته وأشيائه وظواهره المتنوعة والمختلفة إلى عوالم فعالة من التخييل عبر لغات مختلفة ، علامات لغوية ، ألوان ، أصوات ، وصور ... من عالم نحيا ونعيش فيه بهدوء ودعة ، حيث الخبرة المباشرة الحدسية بالأشياء إلى الوعي الجمالي بهذه الأشياء ودورها ودلالتها ووظائفها "[6] . فالمكان يشكل ركنا أساسيا في ديوان الشاعرة ويتجلى في قصائدها بحثها عن عالم الحب والحرية وما تواجهه من قيود وحرمان تحقيق عالمها المنشود ، فتقول[7] :

واهاً ، هنا يهفو على مجلسي في عالم الأشواق روح حبيب
لم تره عيناي لكنني أحسّه مني قريبا قريب

---

[1]الشوابكة ، محمد، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف ، أبحاث اليرموك سلسلة الآداب واللغويات ، مج9 ، ع2 ، 1991 ، ص9 .
[2]طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص8.
[3]طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص16.
[4]النصير ، ياسين ، البنية المكانية في القصيدة الحديثة ، مجلة الآداب ، ع1-3 ، 1986 ، ص210 .
[5]طوقان ،فدوى، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص29-30.
[6]حسين حسين ، خالد ، شعرية المكان في الرواية الجديدة ، الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، ص76.
[7]طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص19.

لقد كانت ذات الشاعرة فدوى طوقان هي المحور الأساسي في قصائدها ، ففي الوقت الذي كانت فيه الشاعرة تبحث عن الحب والأمل في الحياة جاء المكان الذي احتل نصيبا وافرا من قصائدها ليكشف عن (الأنا) لديها ، وحين تجلى المكان في قصائدها فإنه كان متنوعا ومتعددا وفق ثقافتها وتجاربها الواسعة فلكل " فنان مكان خاص يحمله معه أينما حل ، فيتحول من حالته المفردة إلى تعددية قادرة على تلبس أماكن أخرى وهو تعدد متحرك في الجغرافيا والتاريخ " [1].

وقد كان المكان الفلسطيني واحدا من الأمكنة التي تجلت في إبداعات الشاعرة فدوى طوقان وشكلت حيزا هاما في قلبها ، ومن هذه المدن (طوباس ، يافا ، بيسان ، القدس ، نابلس) وفي هذا المحور – محور الحب والأمل استدعت الشاعرة مدينة (القدس) ووظفتها في هذا الباب ، في حين استدعت الشاعرة المدن الأخرى في محاور أخر من شعرها ، وفي استدعاء الشاعرة لمدينة (القدس) في قصيدتها (إلى الوجه الذي ضاع في التيه) قد كان توظيف القدس في هذه القصيدة مختلفا عما سبق من توظيف للمكان ، إذا قامت الشاعرة هنا بالمزج بين الحب والحزن ، بين الفرح والموت ، أو المزج بين حب مأمول ووطن مفقود بأسلوب جميل يظهر قدرة الشاعرة على التجديد الشكلي لشعرها، فالشاعرة فدوى التي كان هاجسها الحب والأمل تقع مدينتها (القدس) في يد الاحتلال ، فتراوح نفسها بين خطابين : خطاب الحبيب وخطاب المدينة الحزينة بأسلوب فريد :

آه يا حبي الغريبآه ياحبي لماذا؟

وطني أصبح بابا لسقر؟الأسى يهطل ليل القدس صمت [2]

وحين نستعرض المكان في هذا المحور (الحب والأمل) يمكن القول إن رومانسية الشاعرة كان لها الدور الأكبر في اختيار المكان ، خاصة المكان المتوحد مع الطبيعة في قصائدها ، فالمكان الذي استدعته الشاعرة كان محكوما بالأبعاد النفسية التي عاشتها الشاعرة " فللمكان أبعاد نفسية تؤثر في الذات البشرية سلبا وإيجابا وفقا لما يثيره من مشاعر وأحاسيس ، فهو المرآة العاكسة لهذه المشاعر" [3].

2- المكان والحزن والاغتراب :

لا شك فيأن الأنسان يعيش ضمن مكان معين وواقع مفروض، وعندما يشعر الإنسان بالفرح والسعادة وأنه جزء من هذا الواقع فإنه يرسم هذا الواقع بأسلوب جميل وصورة تفيض بألوان البهجة والسرور، وعندما يشعر الإنسان بالحزن والاغتراب في وطنه وفي ذاته فإنه لابد من أن يرسم واقعه بشتى صور المرارة والاكتئاب، وقد عرف شعرنا القديم والحديث نماذج كثيرة من هذه الصور، وحين نستعرض قصائد الشاعرة فدوى طوقان وما فاضت به نفسها من صور الحزن والاغتراب ، فإنه يظهر لنا كثيرا من هذه الصور التي طغت على كثير من قصائدها وخاصة ما جاء منها مرتبطا بالمكان ، فقد ترك المكان إثرا واضحا في شعر فدوى طوقان فالمكان يمثل " الكيان الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعة "[4]، وأفعال الإنسان لا بد أن تقع في المكان كما في الزمان .وفي هذا المحور (الحزن والاغتراب) يمكن القول إن قصائد الشاعرة كانت نابعة من نفس عانت الكثير من الحزن والاغتراب ، وكما قال الناقد السوفييتيبالينسكي " إن الفنان يأتي الى العمل الفني مارا بقلبه ليفرغ شحنته التي تنصهر في أحاسيسه ، حيث يتم تشكل العمل الفني أخيرا " [5]. كما كشفت الشاعرة في نثرها أيضا عن شعورها بالحزن والاغتراب في كتابها (رحلة جبلية

---

[1]أبو زريق ، محمد ، المكان في الفن ، مصدر سابق ، ص18 .

[2]طوقان ، فدوى، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص412-413 .

[3]البعول ،فاطمة عيسى ، المكان في شعر حيدر محمود ، مرجع سابق ، ص109.

([4]) النصير ،ياسين ، دراسة في فن الرواية العراقية ، ج2 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980 ، ص16.

([5]) عيد ، كمال ، جماليات الفنون ، الموسوعة الصغيرة (69) ، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ، 1980، ص50.

صعبة) وقد وصل بها هذا الشعور الى حد محاولة الانتحار، تقول " كثيرا ما خطر لي تناول السم ، ولكن من يأتيني به ..... كان الانتحار هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أمارس من خلاله حريتي الشخصية المستلبة " [1] وقد كان هذا بسبب مواقف كثيرة تعرضت لها الشاعرة في حياتها نتيجة القهر الاجتماعي والعائلي بتقاليده الصارمة التي ميزت الرجل على المرأة وحرمت المرأة في ذلك الوقت من أبسط حقوقها ، وهذه المواقف كانت من أسرتها بالدرجة الأولى فأسرتها ضيقت عليها إلى حد أنها تعرضت للعنف بالضرب ، إضافة الى التراكمات القهرية في المجتمع والتي جعلت من النساء ولاسيما نساء المدن آنذاك طيورا داجنة يلقى اليها بالعلف[2] . كما عمق حزن الشاعرة واغترابها موت أخويها إبراهيم ونمر وفقدانها وطنها واغتصابه من قبل الصهاينة ، وحين نبحث عن مظاهر الحزن والاغتراب في قصائد الشاعرة والمكان الذي كان فاعلا في وصفها ، فإن القارئ يجدها جليا في قصائد كثيرة للشاعرة ، وقد كان لهذه المظاهر صور ومواقف كثيرة، فتقول في قصيدتها (هروب) [3]:

بلى هي هذي المآسي الكبار تعذب فيك الشعور الرقيقفتتأين عن واقع رعب إلى عالم عبقري سحيق

ولو تمعنا النظر في مفردات هذه الأبيات (المآسي ، تعذب ، رعب ، سحيق) لوجدنا الشعور بالحزن والاغتراب الذي تعيشه الشاعرة ، وهذا الشعور المحمل بالمآسي لا يتحقق في الفراغ بل يتحقق في المكان في البيئة التي تحيط بالشاعرة . فالرعب سمة هذا المكان الذي يشير إلى البعد النفسي للشاعرة داخل النص ويتبعه المكان (عالم) وهذا المكان أيضا سمته أنه كان سحيقا ، وحين ترسم الشاعرة المكان فإنها تنقل من خلاله مشاعرها وانفعالاتها، بل كل التفاصيل الصغيرة التي تحيط بها حتى عالمها الشعري ، وهو العالم الافتراضي الذي تبنته الشاعرة ليكون في خانه الوهم الذي يوافق حالة الحزن والاغتراب لديها ويماهي الهروب الذي تريده في عنوان قصيدتها ، ويكون المكان أيضا عاملا أساسيا ودافعا الى الإلهام والإبداع " فإن المكان يمكن ان يكون محرضا على الابداع بأشكاله المتناسلة ، وما يثيره من أفكار وذكريات وأحاسيس ذات طبيعة لصيقة بالإلهام "[4] ، وفي قصيدتها (خريف ومساء) وبدءا من البيت الأول في القصيدة ، توظيف الشاعرة المكان ليكشف عن تفاصيل اليأس الذي يحيط بها فالمكان (الروضة) لم يعد ذلك المكان الذي ينبىء عن الفرح والسعادة والانطلاق ، بل أصبح مكانا لقسوة فصل الخريف ، وكأن الشاعرة في واجهة قصيدتها تشكل لنا تضادا أو تقابلا في الرموز ودلالاتها ، فالروضة بجمالها يقابلها الخريف بقسوته بشكل يظهر وكأن الشاعرة تعيش في صراع نفسي في وجدانها حين تقول [5]:

ها هي الروضة قد عاثت بها أيدي الخريف عريت لا زهر لا أفياء لا همس حفيف

وفي البيت الثاني كلمة (عريت) وما في دلالتها من تجرد وجدب جاء ما يقابلها من خصب ونماء ، وذلك تأكيدا على الفكرة السابقة في موضوع الصراع النفسي الذي تعيشه الشاعرة ، وتتجاوز فدوى المكان وأبعاده المادية إلى الفضاء – المكان الواسع ليعبر عن مدى شعورها بالقتامة والحزن ، وقد جاءت الدلالات التي تحملها الألفاظ لتكون شاهدا أيضا على بؤس ذاتها وكآبتها (اربدّ ، يجثم ، غيم ، ضباب) فتقول [6]:

الفضاء الخالد اربدّ وغشاه السحاب وبنفسي مثله ، يجثم غيم وضباب

([1]) طوقان ،فدوى ، رحلة جبلية رحلة صعبة ، ص57، وانظر ص55.
([2]) أبو شريفة ، عبد القادر ، الاعتراف والبوح في رحلة فدوى طوقان ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، جامعة مؤتة ، الأردن ، مجلد 15 ، عدد 18 ، ص69.
([3]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص30.
([4]) أبو زريق ، محمد ، " الفنان / المكان / الذات والآخر " ، مجلة أفكار ، ع 135-137 ، 1999 ، ص115.
([5]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص10 .
([6]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص10.

وأنا في شرفتي أصغي إلى اللحن الأخير فيثير اللحن في نفسي غما واكتئابا

وبهذه الأبيات يظهر سيطرة النزعة السوداوية على وجدان الشاعرة وعلى المكان ، فالفضاء الخالد (اربدّ) ، والشرفة تجمعها مع اللحن الأخير الذي يثير في نفسها الغم والاكتئاب ، وحين توظف الشاعرة حالة الحزن في اشعارها فإنها توظف المكان الذي يعد حاضنا للوجود الإنساني ، فوجود الأديب " لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان ، وانه على قدر إحساس الأنسان بأنه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته " [1] . وتعود الشاعرة بذاكرتها إلى الماضي إلى عالم طفولتها – الطفولة القاسية –إذ عانت طفولة محرومة من الحب والحنان من والديها وهي تعترف بمرحلة طفولتها البائسة، فتقول: " لم تكن الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتي مع الأسرة لتلبي حاجاتي النفسية كما أن حاجاتي المادية لم تعرف في تلك المرحلة الرضى ، وإذا كانت الطفولة هي المرحلة الحاسمة التي ترسم الشخصية وتقررها لما لها من أهمية في حياة الفرد ، فإن طفولتي لسوء الحظ أو لحسن الحظ لم تكن بالطفولة السعيدة المدللة " [2] وتؤكد هذا بشعرها فتقول[3] :

هذا خيال طفولة لم تدر ما مرح الطفولة وهنا صبا عضت عليه قيود سجن واضطهاد

وحين تستدعي الشاعرة فدوى طوقان المكان في شعرها ، فإن هذا الاستدعاء جاء ليخدم رؤاها ويلبي حاجاتها كما يلبي تطلعاتها ورغبتها في إحداث تأثير في القارئ ، فالمكان خير شاهد على صدق أحاسيسها وأفكارها وخير شاهد على الاغتراب الذي عاشته الشاعرة في أسرتها ، واختيارها للمكان (السجن) وما يحمله من دلالات سلبية في نفس الشاعرة في هذا الموقف إلا لأن السجن لم يكن أليفا بل كان عنيفا وعدوانيا ، وهذه دلالة المكان الذي وظفته الشاعرة ليخدم رؤيتها لتبوح عما يجول في نفسها من آلام وأحزان قيدت طفولة محرومة في مرحلة مبكرة من حياتها ، وحينوصل اليأس والحزن ذروته لدى الشاعرة نجدها تهرب إلى الجانب الإيماني لتبحث عن السعادة في السماء ، ويبرز المكان ليكشف عن مدى اليأس الذي اجتاح نفسها :

أنا يارب قطرة منك تاهت فوق أرض الشقاء والتنكيد فمتى أهتدي إلى منبعي الأسمى وأفنى في فيضه المنشود

[4]. فالمكان هو الأرض على سعتها وهي تقدم المكان (الأرض) من خلال الوصف بالقول الذي يفيض بالخيال فيضفي فيضفي شعرية وجمالا على المكان ، فالمكان الشعري " لا يعتمد على اللغة وحدها ، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع " [5] . فالأرض في أصلها تتصف بالوسع المادي الذي يحقق الوسع الوسع المعنوي الذي يوفر الشعور بالسكينة والإحساس بالمودة، لكن الشاعرة في هذا الموقف ترسم المكان لينقل مشاعرها وأحاسيسها التي فاضت بالأسى والحزن والاغتراب ، على اعتبار أن المكان يبرز عواطف وسلوكيات الإنسان حتى يظل المكان نابضا بالحيوية لأن الشعر يرفض كل سكونية فيه [6]. وقد كان إبراهيم طوقان النور الذي يضيء سماء الشاعرة والأمل الذي تبقى في حياتها لكن القدر اختطفه واختطف السعادة من قلبها ، تقول " وحين توفي إبراهيم وكان أبي لا يزال على قيد الحياة عرفت طعم اليتم الحقيقي ، أما حين انتقل أبي إلى العالم الآخر فقد كنت أعاني حالة

([1]) إبراهيم ،نبيلة ، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول ، مج 9 ، ع1-2 ، 1990 ، ص49.
([2]) طوقان ،فدوى ، رحلة جبلية رحلة صعبة ، مصدر سابق ، ص18.
([3])طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص48.
([4]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص87.
([5]) عثمان ،اعتدال ، جماليات المكان ، مجلة الأقلام ، ع1-3 ، 1986 ، ص76.
([6]) البعول ،فاطمة عيسى ، المكان في شعر حيدر محمود ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ،2006 ، ص13.

من التأزم النفسي الرهيب بفعل الكبت العاطفي الشديد الذي كنت أكابده خلال تلك السنوات من حياتي "[1]، وتقول في شعرها :

أخي يا أحب نداء يرف على شفتي مثقلا بالحنان
أخي لك نجواي مهما ارتطمت بقيد المكان وقيد الزمان
أحقا يحول الردى بيننا ويفصلني عنك سجن كياني [2]

وحين يجول القارىء في هذه الأبيات يظهر له تلازم الذات والمكان والعلاقة الوثيقة بينهما ، كما يظهر له قدرة المكان على بعث مشاعر الحزن والاغتراب في نفس الشاعرة ، فالمكان المتخيل (المكان) جاء مقيدا كما هو حال الزمان حين قيد نفسها ، وحين اختارت المكان (السجن) فإنه جاء شاهدا على ذاتها الحزينة ، فتخبر عن السجن بأنه جاء ليفصلها ويبعدها عن أخيها إبراهيم ، وكلاهما المكان المقيد والسجن وما يحملانه من طابع الحزن جاءا ليذكرا بالفراق ، فراق الأخ لأخته وما يبعثه هذا الفراق من لوعة وأسى في قلبها . ويبقى الحزن والاغتراب ملمحا ظاهرا في حياة الشاعرة حين تعيش الاغتراب في ذاتها في ظل قيم اجتماعية بالية أفقدتها لذة الحياة والجمال ، فهي التي عاشت أسيرة بين جدران بيتها ليصبح البيت وهو المكان الأليف الذي وصفه غاستونباشلار بأنه المكان " الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة "[3] ، لكن هذا البيت عند الشاعرة فدوى طوقان يصبح سجنا رهيبا في قصيدتها (من وراء الجدران) [4] :

بنته يد الظلم سجنا رهيبا لوأد البريئات أمثاليه
وكرت دهور عليه وما زال يمثل كاللعنة الباقيه

فالبيت أصبح سجنا توأد فيه حرية المرأة ، وأصبحت الدار رمزا لوحدتها وكآبتها كما أصبح القفل وحشا مفترسا يقيد حرية الشاعرة :

فها أنا بالدار ماذا ؟ فراغ يمد ووحشة صمت كئيبوقفل ثقيل يعض على الباب كالوحش أبكم لا يستجيب[5]

ويتكرر المشهد مرة ثانية في أبيات أخرى للشاعرة حين تكرر مفردات (البيت ، السجن ، القيد)
، فيتحول البيت مرة ثانية إلى سجن تفقد فيه الشاعرة حريتها :

حياتي يا عباس حلم مروع الأشباح
حلم أطبقت عليّ به جدران سجن داج رهيب النواحي [6]

ومع أن للحزن آثارا سلبية يتركها في نفس الإنسان بعامة والشاعر بخاصة إلا أنه يخدم التجربة الشعرية ، فـ " نزعة الحزن في شعرنا المعاصر قد أضافت إلى التجربة الشعرية بعامة آفاقا جديدة زادتها ثراء وخصبا ، وولدت طاقات تعبيرية لها أصالتها وقيمتها "[7] . وقد كان للجانب الديني دور في حزن الشاعرة واغتراب ذاتها ، وقد تجلى ذلك فيما يمكن أن نسميه الاغتراب الروحي نتيجة ضعف الرابط العقدي الذي ينطلق منه الإنسان في تفاعله مع الحياة ، وهي تعترف بتقلبها بين الشك والإيمان حين تلج وتحتج وتذوب خشوعا فتبكي ، وهي أيضا مؤمنة بالله ولكنها لا تمارس

([1]) طوقان ،فدوى ، رحلة جبلية رحلة صعبة ، مصدر سابق، ص135 .
([2]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق، ص 130.
([3]) باشلار ،غاستون ، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط 5 ، 2000، ص 6.
(4) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص88.
(5) المصدر نفسه ، ص 73.
(6) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص 224.
(7) إسماعيل ،عز الدين ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، المكتبة الأدبية ، القاهرة ، 1994 ، ص372 .

أركان هذا الإيمان ، مما شكل صراعا وسوداوية في نفسها[1] ، وحين يضعف الوازع الديني لدى الشاعرة فإنه لا بد وأن يكون هذا سببا في معاناة الشاعرة نفسيا ، إذ تقول [2]:

عارية القلب رجعت إليك عارية القلب أتيتك يا

متعالي يا نائي الداريا غائب يا أبدي الصمت

ويظهر المكان المتخيل مرة أخرى في هذه الأبيات حين توظف الشاعرة (القلب) و (الدار) خدمة لرؤيتها التي يفوح منها هشاشة إيمانها التي بدت واضحة في ديوانها (أمام الباب المغلق) .ويبقى المكان مرتبطا بالحزن والاغتراب لدى الشاعرة فدوى طوقان في صورة جديدة في شعرها حين يبرز الحزن والاغتراب في المكان (الاغتراب المكاني) ، فالإنسان يعيش في المكان وتنشئ بينهما علاقات روحية فيكون المكان عاملا أساسيا في تشكيل مشاعر الإنسان بالفرح والسرور أو بالحزن والكآبة ، وحين تتشكل مشاعر الحزن والكآبة في نفس الإنسان فإنه يشعر " بحاجته إلى الفرار من بيئته فيختار لنفسه بيئة أخرى يحيا فيها بروحه ، ويحلق في أجوائها بخياله ويجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفسا له ، وعوضا عما ضاق من بيئته التي يحيا بها والتي لم يعد له قبل باحتمالها " [3] . وقد ظهر هذا المظهر (الاغتراب المكاني) حين تمنت الشاعرة الإقامة في مصر ، فوطنها المغتصب لم يعد مكانا للفرح والسعادة بل أصبح مكانا لكل آلام القسوة والشقاء ، وهي تنظر إلى مصر على أنها موطن الحياة والصفاء ، فتخاطب مصر بقولها [4]:

يا مصر بي عطش إلى فرح الحياة .. إلى الصفاءيا مصر نحن هناك أموات بمقبرة الشقاء

لا شيء إلا ضحكة الهزء المرير على المباسم !كالضحكة الخرساء قد يبست على فك الجماجم!!

وكان حال مدينة الشاعرة كحال وطنها المغتصب يدب فيها الحزن والصمت ، فتقول[5] :

والحزن في مدينتي يدب عاريا مخضب الخطى

والصمت في مدينتي الصمت كالجبال رابض

ويتكرر هذا المشهد أيضا في قصيدتها (أردنية فلسطينية في إنجلترا) حين تكتشف الشاعرة أنها بلا وطن حين يظهر المكان بمسمياته – إسبانيا – الأردن – القدس ليكشف عن تشتت الشاعرة وحيرتها :

طقس كئيب وسماؤنا أبدا ضبابية

من أين ؟ إسبانية ؟: كلا

أنا من ... من الأردن أنا من روابي القدس[6]

وتعيش الشاعرة فدوى طوقان الاغتراب المكاني حين تهرب إلى الطبيعة للهروب من واقعها المؤلم:

الخريف الجهم والريح وأشجان الغروب ووداع الطير للنور وللروض الكئيب

كلها تمثل في نفسي رمزا لانتهائي! رمز عمر يتهاوى غاربا نحو الفناء[7]

([1]) أبو شريفة ، عبد القادر ، الاعتراف والبوح في رحلة فدوى طوقان ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، جامعة مؤتة ، الأردن ، مجلد 15 ، عدد 18 ، ص14.

([2])طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص151.

([3]) هلال ،محمد غنيمي ، الرومانتيكية ، نهضة مصر ، القاهرة ، ص87.

([4]) طوقان، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص80.

([5]) طوقان، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص371..

([6]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص312.

([7]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص11.

وفي هذه الأبيات يظهر كيف استدعت الشاعرة الصور المثقلة بالهم والحزن والاغتراب وكيف جاء المكان الواقعي (الروض) والمكان المتخيل (نفس) ليكون فاعلا وحاضنا لتلك الهموم والأحزان التي اعترت الشاعرة حين اتخذت منهت رمزا لانتهائها.

ج- المكان والهم الوطني :

حظيت القضية الفلسطينية باهتمام الشعراء العرب على اختلافهم ومنهم كان الشعراء الفلسطينين الذين التزموا بقضيتهم الأولى وتحملوا مسؤولياتهم في الدفاع عن فلسطين ومقدساتها الإسلامية والمسيحية مؤكدين في ذلك على دور الشعر في معركة الدفاع عن ثرى الأرض المقدسة وكان للمكان حضور لافت في تجاربهم الشعرية وخاصة المكان الفلسطيني ، وكانت الشاعرة فدوى طوقان من الشاعرات اللواتي برز المكان في أشعارهن سواء أكان ذلك المكان الذي أحبته أو عاشت فيه أو كان له خصوصية ودلالة في حياتها ، فشخصية الشاعر غالبا ما ترتبط بالمكان الذي عاش فيه ، فهو " يمارس فاعليته في المكان بل ويغير من طبيعته كثير من الأحيان ، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره في الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل " [1] .

والشاعرة فدوى طوقان فلسطينية الأصل سكنت فلسطين وتنقلت في مدنها وقراها ، ومن هنا فقد تسلل المكان الفلسطيني الذي وقع تحت نير الاحتلال إلى قصائدها وخاصة ديوان (الليل والفرسان) الذي كتبت قصائده بعد نكبة 1967 ومن هذا الاحتلال تولدت المعاناة ، معاناة الشاعرة ومعاناة المكان " فالأمكنة جزء من التجربة الحياتية سلبا أو إيجابا والشاعر يقرأ أسرار الأمكنة وخفاياها ويقرأ جغرافيتها وتاريخها الماضي والحاضر والمستقبل ، لذا لا بد للمكان أن ينصهر ويذوب في دم النص كأنه يعاد خلقه من جديد "[2] . وقد جاءت صورة المكان في قصائدها محملة بالحزن والأسى لتكشف عن معاناة الشعب الفلسطيني ، فبرز المكان الفلسطيني (فلسطين ، القدس ، نابلس ، طوباس ، يافا ، بيسان ، الكرمل ، الجليل) وحين استدعت الشاعرة هذه الأمكنة فإنها أعادت صياغتها وحملتها عذابات شعب ذاق مرارة الظلم والألم ، وقد أصبح المكان الفلسطيني ركنا أساسيا في نصوص الشاعرة لا يمكن الاستغناء عنه ، فهو جزء من ذات الشاعرة وبه حملت همها الوطني الذي تغلغل في أعماقها ، فتقول [3]:

فكنت ابن جيل حبا فوق أرض يخصبها كل يوم شهيد
ضحايا يعب دماها الطغاةوقمت أثور مع الثائرين
وهذي جراحي فلسطين تعلمكيف سقتها بكأس رويّ

وحين وظفت الشاعرة المفردات (شهيد ، ضحايا ، دماها ، جراحي ، كفاح) في هذه الأبيات فإن توظيفها كان نتيجة معاناة وقهر في ظل احتلال غاشم ، ومنها تفوح رائحة الموت ، وهي مفردات شعب قدم الشهيد تلو الشهيد في سبيل الدفاع عن وطنه ، وهذا ما أكدته الشاعرة بقولها :(فكنت ابن جيل حبا فوق أرض – يخصبها كل يوم شيد) وغالبا ما نجد هذه المفردات في قاموس الشعراء الفلسطينيين الذين دافعوا عن فلسطين بالكلمة الحرة ، فالمكان (فلسطين) يبقى مزروعا في نفوسهم ، والشاعر الفلسطيني " لا ينتمي إلى القضية الفلسطينية كأي شاعر آخر يناصر الحق والعدل ، وإنما هو في وقع الأمر ينتمي إلى ذاته باعتباره هو القضية ولا يحتاج إلى مبررات أيدولوجية للوقوف إلى جانبها " [4] . وحين تفاعلت الشاعرة مع المكان (فلسطين) فإنها أنسنت المكان (وهذي جراحي فلسطين تعلم كيف

([1]) إسماعيل ،محمد السيد ، بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2001 ، ص13.
([2]) عز الدين المناصرة ، جمرة النص الشعري مقاربات في الشعر والشعراء ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ،1995 ، ص21 .
([3]) فدوى طوقان ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص218.
([4]) شكري ،غالي ، محمود درويش عصفور الجنة أم طائر النار ، مجلة القاهرة ، مصر ، ع151 ، 1995 ، ص9.

سقتها بكأس رويّ) ، فمن خلال الأنسنة استطاعت الشاعرة أن تجسد رؤيتها وانفعالاتها والبوح عن آلامها ، بامتلاكها تقنية فنية جمالية استطاعت من خلالها التواصل الوجداني مع المكان (فلسطين) بخروجها عن إطار الواقع والالتزام بالسمات المادية للمكان .وتظهر (فلسطين) في قصيدة (حمزه) لتعلن الشاعرة في قصيدتها أنها تحتضن قضية أمتها ووطنها ، حين تكشف أن الإنسان الفلسطيني ما هو إلا مشروع شهادة في سبيل خلاص بلده من الاحتلال:

يا فلسطين اطمئني أنا والدار وأولادي قرابين خلاصك

نحن من أجلك نحيا ونموت وطوى الدار خشوع وسكوت [1]

لقد كانت فلسطين والمكان الفلسطيني وما فيه من مدن وقرى هوية وطنية وقومية للشعراء العرب عامة وللشعراء الفلسطينيين والشاعرة فدوى طوقان خاصة " لأهمية هذا المكان في اعتبارات الكرامة والحرية وكافة الرموز في الهوية الوطنية والقومية بمعنى أن المكان الفلسطيني أخذ موقعا فاعلا ومؤثرا في معركة الوجود "[2] . وفي دواوين الشاعرة لم تغب فلسطين ـ المكان ، وإن غابت فإن حروفها ما زالت باقية في وجدان الشاعرة ولم تغب عن عينيها ، فكانت الكلمات والعبارات (القضية الفلسطينية) – (فلسطيني) – (الفلسطيني) حاضرة في قصائدها ، وفي قصيدتها (مدينتي الحزينة) توسع الشاعرة من نطاق الحزن الذي حل بمدينتها وكل مدن فلسطين فلم تحدد مدينتها لتشمل كل مدن فلسطين إذا ما دخلنا إلى علم البيان الذي يوفر مساحة واسعة للشاعرة لتشكيل صورها وإخراجها بثوب جمالي ممتع ، فتقول[3] :

اختفت الأطفال والأغانيلا ظل لا صدى

والحزن في مدينتي يدب عاريا مخضب الخطى

والشاعرة فدوى طوقان في قصائدها التي تحمل همها الوطني ترفض الاحتلال وتدعو إلى التحرر منه ، ولم تكن أقل شأنا من شعراء المقاومة حين التحم شعرها بالسياسة وحين ارتبط شعرها بالمقاومة ، وهذا لم يفقد شعرها رونقه وجماله بل إنها واكبت التطور الفني الذي مرت به القصيدة الشعرية الحديثة حالها حال كبار شعراء المقاومة ، مثل : (محمود درويش ، سميح القاسم ، عز الدين المناصرة ، مريد البرغوثي، ...) ، فها هي في قصيدتها (الفدائي والأرض) ترسم صورة جديدة من صور شعر المقاومة تظهر في عنوان قصيدتها ، حين تربط بين كلمة فدائي وهو من يضحي بنفسه ويقدم روحه رخيصة وبين المكان (الأرض) وهذه الأرض ليست كأي أرض إنها أرض فلسطين ، فتسرد الشاعرة حكاية الأم الفلسطينية وابنها المناضل اللذين تناوبا حب الأرض والدفاع عنها كما ظهر في القصيدة لتكشف أن الأرض الفلسطينية هي الأغلى في حياة الإنسان الفلسطيني ، فتقول [4]:

يا ولدي يا غرسة كريمة اقتلعت من أرضها الكريمة

اذهب فما أعز منك يا بني إلا الأرض

وترسم الشاعرة صورة أخرى للمكان يتعلق بهم الشاعرة الوطني وهذا المكان هو مدينة (طوباس) لتخطو خطوات ثابتة نحو النص الشعري الحديث ، بالاعتماد على الرموز والإشارات وما يقدمه المجاز من إمكانات هائلة في هذا المجال ، فالصور التي ترسمها الشاعرة للمكان هي صور حزينة يغلفها الحزن والمعاناة التي ولدها الاحتلال الغاشم :

"طوباس" وراء الربواتوعيون هاجر منها النوم

([1]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص419.
([2]) النوايسة ،نايف ، فلسطين في الشعر الأردني ، دار مجدلاوي ، عمان ، 2002 ، ص249 .
([3]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص371.
([4]) طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص392.

الريح وراء حدود الصمتتلهث خلف النّفس الضائع
تركض في دائرة الموت يا ألف هلا بالموت[1]

وتشبه وطنها بكوز رمان ينزف منه الدم لكثرة شهدائه وهي ترسم صورة مؤثرة حين تجعل حياتها مستمرة حياة كل إنسان فلسطيني حر يتشبث بالحياة ، عنوانه الصبر ورفض الاستسلام والذل وعدم الخنوع للاحتلال الصهيوني :

وبلادي كوز رمان يفور الدم فيه يغمغم
وحياتي تستمر وحياتي تستمر[2]

ويبقى المكان حاضرا في قصائد الشاعرة فهي تستحضره ليكون عونا لها في بث همومها وأحزانها خاصة المكان الذي يتعلق بوطنها " فالمكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب. فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط ، بل بكل ما في الخيال من تحيز" [3] . وتنوع الشاعرة في صور المكان حين تقدم صورا جديدة تحمل معاني الإبداع ، إذ تلجأ إلى التشبيه الذي يزيد المعاني رفعة ووضوحا ، فتشبه الأرض بالمرأة أساس الحفاظ على النوع الإنساني حين تلد شعبا مقاتلا :

هذه الأرض امرأتقي الأخاديد وفي الأرحام
سر الخصب واحدقوة السر التي تنبت نخلا
وسنابلتنبت الشعب المقاتل[4]

لقد كان المكان فاعلا ومؤثرا في إبداع الشاعرة حين قدمت صورا شعرية حية كانت وليدة خيال خصب واسع مكن الشاعرة من تفجير أفكارها ، فالمكان يتصل اتصالا وثيقا بالصورة الشعرية ، فالمكان بجمالياته ودلالاته هو المسرح الحقيقي الذي تصاغ في مصهرته الشعرية وهو الموضع الذي يحوي في زواياه وتضاعيفه تشكيلات مكانية وفكرية [5] ، ويبقى الهم الوطني معلقا في وجدان الشاعرة ، وتبقى فلسطين (الوطن) حاضرة في وجدان الشاعرة ، ففلسطين ما زالت جريحة تئن تحت وطأة الاحتلال في حين تغافل العرب عن مأساة فلسطين وأصبحت الفرقة جامعهم ، وأصبح الذل والخنوع حالتهم ، تقول الشاعرة [6]:

يا وطني مالك يخنى على روحك معنى الموت معنى العدم
أمضّك الجرح الذي خانه أساته في المأزق المحتدم
أين الألى استرخصتهم ضارعا تحسبهم ذراك والمعتصم

ولقد تمحور الشعراء الفلسطينيون ومنهم الشاعرة فدوى طوقان حول المكان النواة (فلسطين) باعتبارها مكانا واقعيا شعريا ينفتح على العالم ويتظافر معه في علاقة فاعلة عميقة جعلت النص الشعري مشبعا بكيانية مكانية متحركة غير معزولة عن البشر ، وجعلت المكان إيقاعا شاملا يتسلل إلى خلايا النص ، بل يصبح الخلية الأساسية فيه بعيدا عن الانبهار السياحي [7] . وكانت الشاعرة فدوى طوقان من شعراء المقاومة الفلسطينية الذين عنوا بالمكان الفلسطيني حين

([1]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص393 .
([2]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص416.
([3]) النوايسة ،نايف ، فلسطين في الشعر الأردني ، دار مجدلاوي ، عمان ، 2002 ، ص249 .
([4]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص418.
([5]) النصير ،ياسين ، إشكالية المكان في النص الأدبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1986 ، ص315.
([6]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، مصدر سابق ، ص108.
([7]) موسىإبراهيم نمر ،ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر،عالم الفكر ،ع4،مج35 ، 2007 ،ص65.

حين استحضرت مدينة نابلس [1] مسقط رأسها من خلال جبلها المشهور (عيبال) في قصيدة (إلى الشهيد وائل زعيتر) – شهيد الكلمة المقاتلة ، كما استحضرت في القصيدة ذاتها مدينة السلام والأنبياء مدينة القدس :

يا بعيدا يا قريبا نم على الصدر الذييفتحه " عيبال " من أجلك أسند

رأسك الشامخة اليوم إلى " القبة "فالصخرة في القدس احتوتك الآن

حين الموت أعطاك الحياة [2]

لقد تمثل الحزن باديا في أبيات القصيدة بالنظر إلى دلالات الكلمات التي استدعتها الشاعرة ، لتؤلف من خلالها جوا مليئا بالحزن والاكتئاب ، فالصور التي رسمتها الشاعرة جاءت لتكشف عن مدى هذا الحزن الذي اعترى الشاعرة ، حين قامت بأنسنة المكان بلغة جعلتها قادرة على تشكيل الأشياء تشكيلا إنسانيا رائعا لتجسد من خلالها رؤيتها ومشاعرها الدفينة ، بعمل فني متماسك يكون قادرا على نقل همومها وأحزانها للآخرين ، فالشاعرة قامت بأنسنة الوطن (عيبال – نابلس) حينها أصبح النوم على الصدر رمزا للموت– للاستشهاد بعد أن كان النوم على الصدر رمزا للحياة ، وكأن الشاعرة في ندائها (يا بعيدا يا قريبا) توحي بهذه الصورة ، فالشهيد بعيد عن الوجود الفعلي – وهو الحياة لكنه ما زال حاضرا وحيا في النفوس (حين الموت أعطاك الحياة) . ومن المدن والقرى الفلسطينية التي كانت حاضرة في وجدان الشاعرة وأشركتها في أحزانها وهمها الوطني : يافا ، بيسان ، طوباس ، القسطل ، إضافة إلى الأمكنة الأخرى التي حملت الهم ذاته مثل : خيمة المنفى ، السجن ، الزنزانة ، السجن المركزي ، البيارة ، وحين يورد الشعراء ذكر المدن أو القرى في قصائدهم فإن ذلك يعود لعلاقة معها ، أو بكونها تمثل في نفوسهم مفصل المحنة [3] . ويبقى الهم الوطني هو ما يشغل الشاعر المنتمي لوطنه ولأمته حين يتميز الشاعر بذكر الأمكنة التي تجعله لصيقا بوطنه .ولا غرابة في أن نجد أرض فلسطين الأرض المباركة – أرض الأنبياء ومهبط الرسالات السماوية قاسما مشتركا في وجدان الشعراء العرب عامة والشعراء الفلسطينيين خاصة ، والصراع العربي – الإسرائيلي ما هو إلا صراع على الأرض ، لذلك فقد أصبح الوطن لدى الشاعرة فدوى طوقان هو كل الشعر.

الخاتمة

عمدت هذه الدراسة إلى رصد المكان في شعر فدوى طوقان وبيان جمالياته وأثره في تكوين قصائدها الشعرية ، وذلك بالعودة أعمالها الشعرية الكاملة إذ تجلى المكان في شعر فدوى طوقان بشكل بارز ، وذلك ما يدل على اعتناء الشاعرة بالمكان ، فالمكان من أهم الموضوعات لدراسة العمل الأدبي ، ولم يقف المكان في الشعر العربي الحديثعند تلك الحدود الجغرافية ، بل اتسعت مفاهيمه كما اتسعت أبعاده ووظائفه الفنية والاجتماعية والتاريخية ، ولم يعد المكان يرتبط بالشاعر ارتباطا عضويا فقط بل أصبح يرتبط ارتباطا وثيقا بحالة الشاعر النفسية ، خاصة فيما يتعلق بالعاطفة ، وفي شعر فدوى طوقان ارتبط المكان بالعنصر العاطفي لدى الشاعرة وشكل سمة بارزة في شخصيتها وفي بوحها الصادق بالحب واعترافها الجميل به حين طرق قلبها وتغلغل في أعماقها ، متجاوزة بذلك المفاهيموالقيمالبالية، حين أعادتتصحيحالموقفالاجتماعي المتخلفمنقضاياالحبّوالفنّوالحريةعندالمرأة، ليعدها البعض بأنهامن رائدات الحداثة العاطفية الشعرية . وقد خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أبرزها :

([1]) النوايسة، نايف ، فلسطين في الشعر الأردني ، دار مجدلاوي ، عمان ، 2002 ، ص249 .
([2]) طوقان ،فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، ص472.
([3]) بركات ،جميل ، فلسطين والشعر ، دار الشروق ، عمان ، 1989 ، ص329 .

– التأكيد على أن الأعمال الشعرية الأدبية شعرية كانت أو نثرية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمكان ، فقد احتل المكان حيزا واضحا في الشعر القديم والحديث وفي الأجناس الأدبية الأخرى كما في الرواية والقصة والمسرح .

– كان المكان محورا هاما وحاضرا بقوة في شعر فدوى طوقان ، إذ أعادت صياغة المكان صياغة جديدة تمثلت بأنسنة المكان بكل تفاصيله ودقائقه ليصبح المكان جزءا أساسيا في النص الشعري إن لم يكن الدعامة الأساسية فيه .

– ارتبط المكان لدى فدوى طوقان بالمفاهيم الرومانسية ، إذ سيطر الأفق الرومانسي على وجدان الشاعرة وبقي يحاصرها في أعمالها الشعرية خاصة دواوينها الأولى حين توحدت مع الطبيعة الملهمة الأولى للشعراء الرومانسيين .

– ظهر المكان كعامل أساسي مؤثر في الإبداع والإلهام لدى فدوى طوقان خاصة فيما يتعلق بمعاني الحب والأمل التي كانت أكثر شيوعا في قاموسها الشعري .

– برز المكان المفتوح في شعر فدوى طوقان بشكل واضح خاصة المكان الذي حمل عواطف ومشاعر الحب لدى الشاعرة ، فهوية المكان من هوية الذات التي تسكنه .فبالمكان المفتوح يكون الانفتاح وتكون الحرية الشخصية وبه تتحلل الشاعرة من القيود الاجتماعية .

– انتقلت الشاعرة فدوى طوقان في تناولها المكان من المكان الطبيعي (الواقعي) إلى المكان المتخيل (الفني) من خلال لغتها التي ساعدتها إلى الولوج إلى عالم الخيال ، حين جردت المكان من واقعيته ودلالاته الهندسية .

– شغل المكان (فلسطين) وطن الشاعرة فدوى طوقان اهتمامها الأكبر، وذلك باستحضارها فلسطين ومدنها في قاموسها الشعري ، مؤكدة دور الشعر في الدفاع عن ثرى فلسطين.

– واكبت الشاعرة فدوى طوقان في استدعائها المكان التطور الفني الذي مرت به القصيدة الشعرية الحديثة ، بما قدمته من لغة بسيطة واضحة وصور شعرية حية باعتمادها على الرموز والإشارات وما يقدمه المجاز من إمكانات هائلة في هذا المجال .

– ضعف الوازع الديني لدى الشاعرة ، فقد كانت فدوى طوقان تفتقد إلى العقيدة الإيمانية الراسخة ، وهي تعترف بتقلبها بين الشك والإيمان ، وهذا كان سببا في معاناتها النفسية بل شكل صراعا وسوداوية في نفسها .

المصادر والمراجع

(1) إبراهيم ، عبدالله ، البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1988 .

([2]) إبراهيم ، نبيلة ، خصوصية التشكيل الجمالي في أدب طه حسين ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مج 9 ، ع 1–2 .

(3)أبو زريق ، محمد ، " الفنان / المكان / الذات والآخر " ، مجلة أفكار ، ع 135–137 ، 1999.

(4)أبو زريق ، محمد ، المكان في الفن ، وزارة الثقافة ، عمان ، 2003.

([5]) أبو شريفة عبد القادر ، الاعتراف والبوح في رحلة فدوى طوقان ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، جامعة مؤتة ، الأردن ، مجلد 15 ، عدد 18 .

(6)إسماعيل ، عز الدين ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، المكتبة الأدبية ، القاهرة ، 1994 .

(7)باشلار ، غاستون ، جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2، 1984.

(8) بركات ، جميل ، فلسطين والشعر ، دار الشروق ، عمان ، 1989 .

(9)البعول ، فاطمة عيسى ، المكان في شعر حيدر محمود ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 2006 .

(10) الجيوسي ، سلمى ، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1997.

(11) حديدي ، صبحي ، " الحداثة العاطفية " فدوى طوقان والريادة النسوية في الشعر العربي الحديث . الحلقة النقدية في مهرجان جرش 19 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2001.

(12) حسنين ، أحمد طاهر ، ظرف المكان في النحو العربي ، من كتاب (جماليات المكان) ، جماعة من الباحثين ، عيون المقالات ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1988 .

(13)حسين ، خالد ، شعرية المكان في الرواية الجديدة ، الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية .

(14)الحلاق ، يطرس وروبن أوستلوشتيفن فيلد ، شعرية المكان في الأدب العربي الحديث ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2014 .

(15) الخصاونة ، منال سعيد ، المكان في شعر أمل دنقل ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 1998.

(16) الخوالدة ، زايد محمد ، صورة المكان في شعر عزادين المناصرة ، دار الراية للنشر والتوزيع ، عمان ،2012.

(17)الدردنجي ، هيام رمزي ، فدوى طوقان شاعرة ، أم بركان ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمان ، 1994.

(18)ديفيز ، ب.س، المفهوم الحديث للمكان والزمان ، ترجمة : د. السيد عطا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1998.

(19) رحومة ، محمد محمود ، دراسات في الشعر والمسرح اليمني ، دار الكلمة ، صنعاء ، 2003..

(20) السمرة ، محمود ،النقد الأدبي والإبداع في الشعر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1997 .

(21) السيد إسماعيل ، محمد ، بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2001.

(22) شكري ، غالي ، محمود درويش عصفور الجنة أم طائر النار ، مجلة القاهرة ، مصر ، ع151 ، 1995 .

(23) الشوابكة ، محمد ، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف ، أبحاث اليرموك سلسلة الآداب واللغويات ، مج9 ، ع2 ، 1991 .

(24)طوقان ، فدوى ، الأعمال الشعرية الكاملة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1993.

(25) طوقان ، فدوى ، رحلة جبلية رحلة صعبة ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ط2 ، 1985 .

(26) عبد ربه ، ليانة عبد الرحيم ، المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بيرزيت ، فلسطين ، 2012.

(27) عبد مسلم ، طاهر ، عبقرية الصورة والمكان ، التعبير ، التأويل ، النقد ، دار الشروق ، عمان ، 2002 .

(28) عثمان ،اعتدال ، جماليات المكان ، مجلة الأقلام ، ع1-3 ، 1986 .

(29) عقاق ، قادة ، دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
(30) عيد ، كمال ، جماليات الفنون ، الموسوعة الصغيرة (69) ، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ، 1980.
(31) لحمداني ، حميد ، بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1993 .
(32) ليلى ونبيلة ، نقاز ، المكان في شعر فدوى طوقان ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة محمد بوضياف المسيلة ، الجزائر ، 2018.
(33) مرشد ، أحمد ، جدل الزمان والمكان في روايات عبد الرحمن منيف ، مجلة بحوث جامعة حلب ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع22 ، 1992.
(34) مصطفى ، إبراهيم ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، استانبول – تركيا .
(35) المناصرة ، عز الدين ، جمرة النص الشعري مقاربات في الشعر والشعراء ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ،1995 .
(36) موسى ، إبراهيم نمر ، ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر ، عالم الفكر ،ع4،مج35 ، 2007 .
(37) مونسي ، حبيب ، فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001.
(38)النصير ، ياسين ، إشكالية المكان في النص الأدبي ، ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 .
(39) النصير ، ياسين ، البنية المكانية في القصيدة الحديثة ، مجلة الآداب ، ع1-3 ، 1986 .
(40) النصير ، ياسين ، دراسة في فن الرواية العراقية ، ج2 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980 ..
(41) النوايسة ، نايف ، فلسطين في الشعر الأردني ، دار مجدلاوي ، عمان ، 2002 .
(42) هلال ، محمد غنيمي ، الرومانتيكية ، نهضة مصر ، القاهرة ،2003.
(43) هلو،الطيب ، صورة المكان في شعر محمد لقاح http://www.maghress.com/essanad/2075